المرتكزات والخطوات المنهجية للمقاربة الثقافية عند عبد الله الغذامي

بالنظر لتحديد مفهوم النقد الثقافي على أنه فعالية نقدية واستراتيجية قرائية مابعد حداثية هل يمكن الحديث عن مرتكزات لهذا النقد المتميز بعبر تخصصيته؟؟ يمكن الحديث عن مرتكزات النقد الثقافي باعتبارها تلك المرجعيات التي أسست مقولاته وزاوية مقاربته للخطابات الثقافية (الأنساق الثقافية المضمرة) على غرار مدرسة فرانكفورت، مركز برمنجهام، ميشال فوكو، الماركسية... التي أمدَّت النقد الثقافي بمفهوم خاص بالثقافة والخطاب في علاقتهما بالهيمنة والسلطة وخطوات قراءة الخطاب من بنيته الداخلية وصولا إلى تأويله في إطار سياقه الثقافي، وعليه تعددت القراءات الثقافية من باحث إلى آخر حسب المرجعيات التي ارتكز عليها في تحليله؛ وعليه ستتناول هذه المحاضرة مرتكزات النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي مايستدعي الوقوف على الخطوات الإجرائية للقراءة الثقافية للخطابات.

أولا: مرتكزات النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي

ارتكز عبد الله الغذامي في مقاربته النقد ثقافية على مشروع "فنسنت ليتش" فإذا كان هذا الأخير هو أوّل من حدد مصطلح النقد الثقافي في الغرب، فإنّ "الغذّامي" يعد أوّل من عرّبه وطبقه على الخطاب الثقافي العربي، انطلاقا من إدراكه أن النقد الأدبي" أوقعنا في حالة من العمى الثقافيّ التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي »[1] ما يتطلب لزاما مقاربة جديدة تكشف عن العيوب الثقافية في الثقافة العربية؛ أي الانتقال من النقد الأدبي الى النقد ثقافي ما يقتضي نقلة في المصطلح والمفهوم والوظيفة والإجراءات التطبيقية، والنقلة الاصطلاحية هي أولى النقلات وأهمها إذ صاغ الغذامي جملة من المصطلحات التي تعد مرتكزات لابد أن ينطلق منها الناقد الثقافي للكشف عن الأنساق المخبوءة وهي : **الوظيفة النسقية، الدلالة النسقية، التورية الثقافية، المجاز الكلي، الجملة الثقافية، المؤلف المزدوج.**

1- الوظيفة النسقية:

حدد رومان جاكبسون ست وظائف للغة انطلاقا من عناصر قناة الاتصال الست، وأضاف عليها الغذامي العنصر النسقي الذي يحقق الوظيفة النسقية في الخطاب كما هو موضح في المخطط الاتي:

[1]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص8

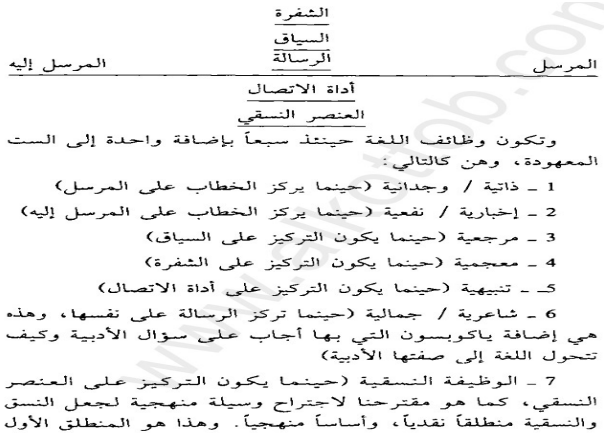

وتكون وظائف اللغة حينئذ سبعاً بإضافة واحدة إلى الست المعهودة، وهن كالتالي:

1 ـ ذاتية / وجدانية (حينما يركز الخطاب على المرسل)
2 ـ إخبارية / نفعية (حينما يركز الخطاب على المرسل إليه)
3 ـ مرجعية (حينما يكون التركيز على السياق)
4 ـ معجمية (حينما يكون التركيز على الشفرة)
5ـ ـ تنبيهية (حينما يكون التركيز على أداة الاتصال)
6 ـ شاعرية / جمالية (حينما تركز الرسالة على نفسها، وهذه هي إضافة ياكوبسون التي بها أجاب على سؤال الأدبية وكيف تتحول اللغة إلى صفتها الأدبية)
7 ـ الوظيفة النسقية (حينما يكون التركيز على العنصر النسقي، كما هو مقترحنا لاجتراح وسيلة منهجية لجعل النسق والنسقية منطلقاً نقدياً، وأساساً منهجياً. وهذا هو المنطلق الأول

ويعني هذا أن النقد الثقافي يهتم بالمضمر في النصوص والخطابات وينتقل دلاليا من الدلالات الحرفية والتضمينية إلى الدلالات النسقية.

2- **الدلالة النسقية:** يستند النقد الثقافي إلى ثلاث دلالات:

الدلالة المباشرة الحرفية والدلالة الإيحائية المجازية الرمزية:

الدلالة النسقية الثقافية وهي الأهم: يقول الغذامي "إذا قبلنا - بإضافة عنصر سابع إلى عناصر الرسالة الستة، وسميناه بالعنصر النسقي، فهو سيصبح المولد للدلالة النسقية، وحاجتنا إلى الدلالة النسقية هي لب القضية، والدلالة النسقية هي قيمة نحوية ونصوصية مخبوءة في المضمر النصي وهي في المضمر وليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدققة تأخذ بمبدإ النقد الثقافي لكي تكتشفها، ولكي تكتمل منظومة النظر والإجراء."[2] إن هذه الدلالة النسقية هي ما يمثلها ضمنيا ما يسمى بالنسق المضمر. ذلك أنّ الدلالات اللغوية لم تعد كافية لكشف كل ما تخبئه اللغة من مخزون دلالي، لهذا وجب الكشف عن ما وراء الدلالات اللغوية وهي غالبا دلالات نسقية مضمرة داخل عمق النص.

3- **التورية الثقافية:** وهي تعني « وجود معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، والمقصود هو البعيد، وكشفه هو لعبة بلاغية منضبطة)...(أي إن الخطاب يحمل نسقين لا معنيين أو أحد هذين النسقين واع والآخر مضمر.»

4- **المؤلف المزدوج (الثقافة المؤلف):** وهي تعني وجود مؤلف ثان هو الثقافة غير المؤلف الأصلي (الكاتب)، والذي يشارك هو الآخر في العملية الإبداعية. فعلى الرغم مما ينتجه الكاتب من نصوص إبداعية ،«غير أننا سنجد من تحت هذه الإبداعية، وفي مضمر النص نسقا كاملا وفاعلا ليس في وعي صاحب النص، لكنه نسق له وجود حقيقي، وإن

[2] - عبد الله محمد الغذامي وعبد النبي اصطيف: نقسه، ص:26-27.

تعتبر هذه الجملة الثقافية كاشفة للنسق المضمر في الخطاب الشعري الذي أنتجه مؤلف ثان وهو الثقافة العربية التي توصل الغذامي من خلال قراءته الثقافية لخطاباتها أنها مشبعة بتعالي الذات والتمحر حول الأنا وهذا ما نقف عليه في عديد الجمل الثقافية في أشعار الجاهلية وأشعار أبي الطيب المتنبي .....

خلاصة: هذه أبرز المرتكزات التي قام عليها مشروع النقد الثقافي عند الناقد عبد الله الغذامي ،والتي استطاع بفضلها أن يضيء ساحة النقد خصوصا في تناوله لبعض النماذج النصية الحداثية من نصوص شعرية لأدونيس ونزار قباني وغيرها، مما مثل مفهوم الحداثة العربية الإبداعية والتي استطاع أيضا بفضل تحليله الثقافي أن يكشف بواطن الشخصية والذات العربية وما تريده من إبداء صوتها المقموع وغيرها من المواضيع الثقافية المهمشة.

وعلى العموم فمشروع الناقد عبد الله الغذامي يبقى من ضمن المشاريع النقدية الثقافية الهامة في ساحة الفكر والتي أحدثت بالفعل نقلة نوعية في مفهوم الخطاب والنقد والثقافة عموما وما أحوجنا في مساءلة نصوصنا الإبداعية اليوم إلى النقد الثقافي.

ثانيا: الخطوات المنهجية للقراءة الثقافية عند الغذامي

استنادا على المرتكزات السابقة نجزم بالقول أن النقد الثقافي يعنى بالكشف عن المضمرات النسقية من خلال تحليل الجمل القافية والوقوف على المجازات والصور الاستعارية أي فهم بنية الخطاب في ذاته ثم شرحه على ضوء السياق الثقافي الذي أنتجه فهو ينطلق من الداخل إلى الخارج ويمكن تحديد الخطوات الإجرائية كالآتي:

- ✓ **مرحلة المناص الثقافي:** ندرس فيها كل العتبات الثقافية من مؤلف، وعنوان، ومقدمة، وإهداءات، وسياق، وهوامش، ومقتبسات، وصور، وأيقونات، ووسائط إعلامية... وكل ذلك من أجل استخلاص الأبعاد الثقافية في هذه العتبات الفوقية والمحيطة.
- ✓ **مرحلة التشريح الداخلي:** هنا، نقوم بتحليل النص وتشريحه وتفكيكه جماليا وبديويا وسيميائيا وأسلوبيا، فلابد من الاهتمام بما هو فني ولغوي وأسلوبي وبلاغي لفهم ما هو ثقافي.
- ✓ **مرحلة الرصد الثقافي:** تعتمد هذه المرحلة على رصد التمظهرات الثقافية، واستخلاص الأساق الثقافية المضمرة، وذلك بالوقوف عند الجمل والمجازات والكنايات والصور والدلالات و الأساق الثقافية المضمرة.
- ✓ **مرحلة التأويل الثقافي:** تتكئ في هذه المرحلة على العلوم الإنسانية كالتاريخ، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم الثقافة، وعلم النفس، والنقد الأدبي في استجلاء الأبعاد الثقافية، وفضح الإيديولوجيات، ونقد الأوهام والأساطير المؤسساتية، وذلك في شكل أحكام وخلاصات واستنتاجات ثقافية.

[3]- ينظر مرتكوات النقد الثقافي والخطوات المنهجية للمقاربة الثقافية، سامية نعاس، مجلة اللغة الوظيفية

كان مضم ار، إننا نقول بمشاركة الثقافة بمؤلف فاعل ومؤثر، والمبدع يبدع نصا جميلا، فيما الثقافة تبدع نسقا مضمرا، ولا يكشف ذلك غير النقد الثقافي.»

إنّ الثقافة تعمل عمل مؤلف آخر يصاحب النص ومؤلفه المعلن وتشترك الثقافة بغرس أنساقها من تحت وعي المؤلف المبدع للنص.

5-المجاز الكلي: هو الجانب الذي تتقنع به اللغة لتمرر أنساقها الثقافية دون وعي منا، واصطلح عليه الغذامي بالـ"عمى الثقافي"، يهدف النقد الثقافي إلى استخالص المجازات الثقافية الكبرى التي تتجاوز المجاز البلاغي والأدبي المفرد، حيث يتحول النص أو الخطاب إلى مضمرات ثقافية مجازية، وهذا معناه؛ أننا بحاجة إلى كشف مجازات اللغة الكبرى والمضمرة ومع كل خطاب لغوي هناك مضمر نسقي، يتوسل بالمجازي والتعبير المجازي ليؤسس عبره قيمة دلالية غير واضحة المعالم، ويحتاج كشفها إلى حفر في أعماق التكوين النسقي للغة، وما تفعله في ذهنية مستخدميها، وخطاب الغزل مثلا في الثقافة العربية مجاز كبير يضمر أنساقا تتخفى تحت عباءة التشكيل الشعري الجمالي كنسق الفحولة الذي تفضحه الجملة الثقافية مثال ذلك أشعار نزار قباني الذي تبدو أنها تمجد المرأة وخطاب حب وغزل في الذات النسائية لكنها تضمر عيبا نسقيا ثقافيا وهو نسق الفحولة ولا أدل على ذلك من قوله:

إنـــي خيرتُكِ فاختاري
.ما بين الموت على صدري .
.أو فوق دفاتر أشـــعاري
لا توجد منطقة وســـطى
.مـــابين الجنـــة والناري .

6- الجملة الثقافية: :

صاغ الغذامي مصطلح الجملة الثقافية أو النوعية في معرض اهتمامه بالدلالة النسقية حيث يقول " فإذا كانت الدلالة الصريحة تستند إلى الجملة النحوية والدلالة الضمنية تنشأ عن الجملة الأدبية، فلابد لنا من تصور خاص يسمح للدلالة النسقية بأن تتولد، وهو مانسميه بالجملة الثقافية " إذن النقد الثقافي يعتمد على التمييز المنهجي بين ثلاث جمل رئيسة، وهي:الجملة النحوية ذات المدلول التداولي ، والجملة الثقافية التي هي حصيلة الناتج الدلالي للمعطى النسقي، والإيحائي والجملة الأدبية ذات المدلول الضمني والمجازي وكشفها يأتي عبر العنصر النسقي في الرسالة، ثم عبر تصور، مقولة الداللة النسقية، وهذه الدلالة سوف تتجلى وتتمثل عبر جملة ثقافية. ذات دلالة اكتنازية وتعبير مكثف.ونفهم من كل هذا أن الجملة الثقافية هي الهدف والمرمى من التحليل، وأنها تعنى باستكشاف المنطوق الثقافي، وتحصيل المعنى السياقي الذي يحيل على المرجع الثقافي الخارجي.

وكمثال على الجملة الثقافية نقف على بيت لنزار قباني حيث يقول : مارستُ ألفَ عِبادة وعبادة * فوجدتُ أفضلها عبادةُ ذاتي